

وظيفة الشعر في الجاهلية ومنزلته لدى العرب

إن العصر الجاهلي لايشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان بل ينحصر في حقبة زمنية معينة هي الحقبة التي تسبق الإسلام مباشرة وهي التي تكاملت فيها للغة العربية خصائصها وجاءنا عنها الشعر الجاهلي في صورته التامة المكتملة. وهذه الحقبة الجاهلية تتراوح عند الجاحظ ما بين مائة وخمسين عاما ومائتي عام على أكثر تقدير لأن تاريخ الشعر الجاهلي قبل هذه الحقبة مجهول فنحن لا نعلم أي شيء عن طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى.

والجاهلية التي تطلق على هذا العصر ليست من الجهل الذي هو ضد العلم وإنما هي من الجهل بمعنى السفه والطيش والغضب. وهي تقابل كلمة "الإسلام" التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم. وقد استعملت هذه الكلمة بهذا المعنى في القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر الجاهلي. قال تعالى في سورة الأعراف "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" ويقول في سورة الفرقان "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما". وفي الحديث النبوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر وقد عير رجلا بأمه "إنك امرؤ فيك جاهلية". ومن الشعر الجاهلي نجد قول عمرو بن كلثوم

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكانت حياة الجاهليين قبل الإسلام تعتمد على نظام القبيلة التي تحتاج إلى من ينطق باسمها ويدافع عنها فكان الشاعر هو الذي يسجل مآثر قومه وينشر مفاخرهم ويشيد بذكرهم ويحمي أعراضهم ويذود عن أحسابهم ويخوف أعداءهم ويخذل خصومهم في شعر تتناقله الرواة وينتشر بسرعة بين القبائل. ومن هنا تأتي أهمية الشاعر في قبيلته فقد كانت القبائل يهنيء بعضها بعضا إذا نبغ بينهم شاعر وكانوا لا يهينون إلا بثلاث غلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج. وكانت هذه العناصر الثلاثة هي مصادر قوة الحياة العربية. فقد كان الشعراء ألسنة قبائلهم وأصحاب الرأي المقدم فيها يستعينون بهم عند الشدائد ويفزعون إليهم عند الحروب لأن الشاعر يحمس قومه عند الحرب ويحرضهم على قتال الأعداء ويشيد بشجاعتهم وحسن بلائهم في المعارك.

ويذكر الجاحظ أن الشعر كان ديوان فضائل العرب وسجل مفاخرها وتحصين مآثرها. يقول "فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال. وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها". ونظرا لمنزلة الشاعر الرفيعة في الجاهلية كان الشعراء بمنزلة الحكام يقولون فيرضى قولهم ويحكمون فيمضي حكمهم. وكان الشاعر إذا مدح شخصا رفعه وإذا هجاه وضعه. ولذلك كان الجاهليون يخافون لسان الشاعر ويتقون هجاءه لأن ذلك قد يبقى في الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات. ومن أمثلة ذلك أن قوما من العرب كانوا يسمون "بنو أنف الناقة" وكانوا يغضبون من سماع هذا اللقب حتى جاء الحطيئة فمدحهم بقوله

قوم هم الأنف والأذنان دونهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

فرضوا بذلك وصار هذا اللقب مدحا لهم بعد أن كان هجاء. ويروي ابن هشام في السيرة النبوية خبرا يتعلق بخوف العرب الشديد من سلطان الشعر وتقديرهم لخطر تأثيره على الرأي العام . فقد ذكر ابن هشام أن قريشا جزعت جزعا شديدا حين علمت أن الشاعر الكبير الأعشى خرج يريد الإسلام. فترصدت له في الطريق وما زالت به ترهبه وترغبه حتى تنته عن مقصده إلى حين.

والخلاصة أن الشعر كان يعد عند العرب من أشرف الكلام وأقدسها ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وحكمهم وقد انتشر الشعر بين الناس حتى لا تكاد نجد بيتا من بيوت العرب إلا وفيه من ينظم الشعر أو ينشده.